

المعادلة الصعبة: طموح الكرد بالاستقلال والخشية الإقليمية من التقسيم

غازي دحمان

كاتب سوري - سورية

مرّت مرحلة، اعتقد الكرد أن الظروف باتت مهيأة لتحقيق حلمهم بإنشاء دولة لأمة الأكراد في مناطق كردستان التاريخية، وقد وقرت ظروف عدم الاستقرار وانهيار الدولة في سورية والعراق الركيزة الأساسية لهذا الاعتقاد، كما أن الحرب على " تنظيم الدولة الإسلامية" أو ما يعرف ب" داعش"، رسّخت هذا الاعتقاد لدى الكرد بعد الثقة التي حصلوا عليها من القوى الدولية" الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الروسي" نتيجة نجاحهم في محاربة التنظيم.

كانت جميع المؤشرات توحى أن الدولة الكردية باتت على مرمى قرار إعلانها، بعد إنجاز بعض التفاصيل الصغيرة والضرورية لاستكمال مسار قيام الأمة "الدولة" الكردية، مثل الاستفتاء في شمال العراق وإجراء انتخابات بلدية في شمال سورية.

لا شك أن صناع القرار الكرد مروا بلحظات تحد قاسية، وإذا كان السياسي الماهر هو الذي يلتقط اللحظة المناسبة لاتخاذ قراره، بعد دراسة الفرص والمخاطر والتكاليف والعوائد، وقراءة توجهات السياسات الدولية والإقليمية، فإن كل ما في البيئة الدولية كان ضبابياً، سواء لجهة الصراع الناشئ في المنطقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا، والتغيرات الناتجة عن هذا الصراع، أو لجهة الاستقطاب الإقليمي الحاد وذهاب الأطراف الإقليمية إلى استعمال جميع أوراقها في الصراع، بما فيها الأوراق الخطرة وتلك التي لها علاقة بالعبث بالسلم الداخلي للدول، فإن كل ما سبق دفع بالقيادات الكردية في شمال العراق إلى المغامرة باللعبة إلى أقصاها.

راهن الكرد على أن سقوط داعش سينتج عنه متغيرات إقليمية كبرى من شأنها إعادة تشكيل منطقة الشرق الأوسط، وسيكون من مصلحة دول المنطقة جعل الكرد إضافة إيجابية لحل أزمات المنطقة وليس تحويلهم إلى خصم يصعب التعامل معه مستقبلاً.

الحلم الكردي بإنشاء الدولة الكردية

ليست مطالب الكرد بالاستقلال حديثة العهد أو نتيجة المتغيرات التي نشأت في المنطقة في العقد الأخير، ولطالما نظر الأكراد لأنفسهم على أنهم القومية الرابعة في الشرق الأوسط، بالإضافة للعرب والترك والفرس، وأن هذه القوميات حققت دولها باستثناء الكرد.

وبالمنظور الكردي، تقع دولة الشعب الكردي بين دول أربع: شرق كردستان (إيران)، وشمال كردستان (تركيا)، وغرب كردستان (سوريا)، والشمال (العراق)، حيث جرى هذا التقسيم للكرد وفق اتفاقية سايكس بيكو منذ حوالي مائة عام.

وبحسب الإحصاءات الكردية، يبلغ تعداد الشعب الكردي ما بين 38 إلى 40 مليون نسمة، يتوزعون على الدول الأربع، إذ يعيش حوالي 20 مليوناً في تركيا، وأكثر من 3 ملايين في سوريا، وحوالي 8 أو 9 ملايين في إيران، ويعيش نحو 5 ملايين نسمة في كردستان العراق.

و في عام 1946 قامت أول جمهورية «مستقلة» للأكراد في إيران. كانت القوات السوفياتية تحتل القسم الشمالي من إيران وقررت قبل أن تنسحب أن تدعم نشوء جمهوريتين «شعبيتين»: جمهورية أذربيجان (غير أذربيجان السوفياتية) و «الجمهورية الكردية الشعبية» إلى الجنوب منها التي أسست جيش الشعب الكردي ومحطة إذاعة واختارت القاضي محمد لرئاستها، لكن هذه الجمهورية لم تدم لأكثر من عام قبل أن تقضي إيران عليها بشكل كامل.

وفي عام 1961 أعلن كرد العراق، بقيادة الملا مصطفى بارزاني الثورة في العراق، وفي عام 1970 وقعت الحكومة العراقية مع البارزاني اتفاقية الحكم الذاتي للأكراد، ولم تدم هذه الاتفاقية طويلاً بسبب انقلاب حكومة العراق عليها عام 1974 وتوقيعهم اتفاق الجزائر مع شاه إيران محمد رضا بهلوي الذي تنازل عن دعم الكرد مقابل حصوله على مكاسب إقليمية في شط العرب.

وفي عام 1992 فرض التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية حظراً جوباً على الطيران العراقي على كردستان وغادرت القوات العراقية منطقة كردستان، وعدت المنطقة مستقلة ذاتياً بحكم الأمر الواقع، وقاد غزو العراق عام 2003 والتغيرات السياسية اللاحقة للتصديق على دستور جديد للعراق في عام 2005 وحدد هذا الدستور منطقة كردستان العراق كياناً اتحادياً ضمن العراق، تتوزع السلطة فيه بين رئيس منتخب وبرلمان مكون من 111 نائب، ويضم ثلاث محافظات، دهوك وأربيل والسليمانية، بمساحة قدرها أربعين ألف كيلو متر مربع ويبلغ عدد سكانه 4 ملايين نسمة.

الموقف الإقليمي

رغم الأزمات العاتية التي يمر بها الإقليم وحالة الاضطراب التي يعيشها، إلا أن مواقف دوله من مسألة استقلال الكرد أظهرت توافقاً كبيراً بين أطرافه، وهو ما خالف تقديرات زعماء الكرد والتي انبنت على أساس أن مناخات التوتر والاستقطاب الإقليمية تتيح لهم اختراق جدار الرفض الإقليمي لاستقلال الكرد، وربما تمنع حصول توافق إقليمي ضدهم.

غير أن القوى الإقليمية، جميعها، باستثناء إسرائيل، رأت أن استقلال كردستان العراق، في سياق إقليمي معقد على جميع مستوياته السياسية والاقتصادية والأمنية، سيعزز مناخ الفوضى في مجتمعات فسيفسائية ويقوي من التوجهات الانفصالية وأطروحات الفيدرالية التي ستؤدي إلى تصدع الدولة القومية في منطقة الشرق الأوسط.

وليس سرًا الانقسامات العامودية والأفقية التي تضرب دول الشرق الأوسط، تركيا وإيران والعراق وسورية، وتستنزف هذه الدول منذ سنوات، ويشكّل العنصر الكردي أكثرها خطرًا لما للأكراد من حضور كبير في هذه الدول، وكذلك نتيجة حصولهم على دعم خارجي، شعبي ورسمي، بالإضافة إلى قدرتهم التنظيمية وتأسيسهم هياكل سياسية وعسكرية في أكثر من دولة، وقدرتهم على نقل هذه التجربة أو استنساخها حتى في الدول التي لم تظهر بها بعد، مثل إيران التي تعتبر الأشدّ قمعًا للأكراد في دول الإقليم، حيث يأخذ القمع الإيراني طابعًا مذهبيًا قوميًا بنفس الوقت، فالأكراد في إيران مقموعون لأنهم سنة ولأنهم كرد.

وزاد من تعقيدات الوضع الكردي في المنطقة ارتباطه بالمشاريع الجيوسياسية للقوى الإقليمية وصراعات النفوذ الحاصلة، حيث ترفض إيران إقامة الدولة الكردية نظرًا لسيطرة أكراد العراق على المناطق الحدودية بين العراق وسوريا، وهي المناطق التي تسعى إيران للسيطرة عليها لجعلها ممرًا أرضيًا إيرانيًا، ولا يتناسب ما تعتبره إيران من صعود كردي في هذه المرحلة مع طموحاتها في إخضاع جميع مكونات المنطقة بما فيهم الأكراد، ذلك أن إيران تنظر للأكراد عمومًا، وأكراد العراق بشكل خاص على أنهم جزء من القوة السنية التي تحاربها في المنطقة، وبالتالي فإن أي نهوض في مواجهة التمرد الإيراني قد يشكل قاطرة لجر المشاكل على إيران في المرحلة الراهنة.

بينما يأتي الرفض التركي لانفصال كردستان خوفًا من تقوية شوكة أكراد سورية الذين يسيطرون على الحدود بين سورية وتركيا، بما يعني عزل تركيا بريًا عن العالم العربي إلى الأبد، وإذا كانت تركيا تقيم علاقات جيدة مع إقليم كردستان العراق وتجارة بلغت مستوى عشرة مليارات دولار في العام، حيث تعتبر كردستان العراق ثاني أكبر شريك تجاري لتركيا بعد الولايات المتحدة الأمريكية، فذلك عائد بدرجة كبيرة إلى وجود تقاطعات سياسية بين الطرفين أهمها معاداتهما لحزب العمال الكردستاني والذي تعتبر "وحدات حماية الكرد" في سورية أحد أذرعها، ولطالما اعتبر الكرد في سورية تجربة كردستان ومحاولات الاستقلال مختبرًا لمعرفة توجهات السياسة الدولية من قضية استقلال

الکرد في المنطقة، وبالتالي فهم يحسبون خطواتهم بناء على تطورات ملف الكرد في العراق سلبيًا أو إيجابًا.

وبشكل عام، يكاد يكون الموقف الإقليمي من استقلال الأكراد ثابتًا طوال مراحل قيام الدول القومية والوطنية في المنطقة، وهو مرتبط بخلفيات أمنية تخص الأمن القومي مباشرة لهذه الدول، إذ بالإضافة إلى كون هذه الدول متشكّلة من خليط من الإثنيات والطوائف، وتتميز بسيطرة قومية معينة أو طائفة محدّدة في كل منها، فإن مناطق الأكراد تقع جميعها عند الحدود ما يعني أن انفصالها سيعزل الدولة " إيران وتركيا والعراق وسورية" عن الجوار ويحرمها من مزايا اقتصادية وسياسية كبيرة.

إسرائيل: التأييد الضار

أيدت إسرائيل توجّه الكرد إلى إعلان الاستقلال، وكانت بموقفها هذا متفردّة ليس على مستوى الإقليم، بل وعلى المستوى الدولي بمجمله، وذلك انطلاقًا من زعمها بـ "حق الشعوب في تقرير مصيرها" وهو الحق الذي طالما رفضت الاعتراف به للفلسطينيين.

ومن المعلوم أن الكرد يرتبطون بإسرائيل بعلاقات جيدة كان قد نسجها الملا مصطفى البارزاني، الزعيم الكردي الأكثر قوّة في التاريخ الكردي المعاصر، كما أنه يقيم في إسرائيل أكثر من مئتي ألف كردي يهودي كانوا قد هاجروا إليها في سنين سابقة، وبعضهم وصل إلى مناصب عليا، "وزير الحرب إسحاق مورديخي"، كما يتركز اليهود الأكراد في المناطق المحيطة بالقدس ولهم علاقات قوية بالمؤسسات الإسرائيلية، وكان مسعود البارزاني قد أكد، بعد نفي طويل لوجود علاقة مع إسرائيل، أن هذه العلاقة ليست جريمة على اعتبار أن دولاً عربية تقيم علاقات مع إسرائيل، ويقول الكرد إنه ليست بينهم وبين إسرائيل مشكلة وأن الأخيرة لا تحتل أرضًا كردية.

غير أن ظهور إسرائيل على مسرح الحدث الكردي أضر الكرد أكثر مما نفعهم، فقد اتخذت دول الإقليم التأييد الإسرائيلي ذريعة لمواقفها الراضية لاستقلال الكرد، كما

استطاعت تعبئة الرأي العام لدى شعوبها، وعزلت القوى الليبرالية التي تنظر للکرد كشعب يحق له تقرير مصيره.

وليس خافياً أن لإسرائيل أهدافاً إستراتيجية بعيدة المدى من وراء دعمها للاستقلال الكردي، وأن ذريعة تعاطفها مع الكرد وحقهم في تقرير مصيرهم ليست سوى القشرة التي تغطي بها أهدافها والتي يأتي على رأسها رغبتها في تفتيت دول المنطقة، والاستفادة من العلاقات مع الكرد للتغلغل في النسيج الجغرافي للمنطقة واختراق الخواصر الضعيفة وتهديد أمنها واستقرارها.

الموقف الدولي

شكّل الموقف الدولي مفاجأة في هذا السياق، على الرغم أن الكرد راهنوا بدرجة كبيرة على تفهم الغرب لهم، ولطالما صوّر الإعلام الغربي الكرد كشعب مختلف عن الشعوب الأخرى في الشرق الأوسط لجهة انفتاحه وتنظيمه، وقد غزت صورة المقاتلات الكرديات "الجميلات" الإعلام الغربي وهن يقاتلن تنظيم داعش الظلامي وبتنصرن عليه في مواقع عديدة، ما أثار موجة تعاطف في الرأي العام الغربي مع الأكراد ونضالهم في سبيل تقرير مصيرهم.

كما راهن الأكراد على الموقف الروسي نتيجة علاقاتهم التاريخية مع الاتحاد السوفياتي والعلاقات التي نسجوها مع روسيا في مرحلة تدخلها في سورية.

غير أن هذا التعاطف لم تتم ترجمته إلى تأييد علني لاستقلال الكرد، وقد حالت جملة من الأسباب ظهور هذا التأييد:

- التقدير الغربي، والدولي عموماً، أن التوقيت غير مناسب لطرح هذا الأمر، وأن الظروف التي تمرّ بها المنطقة تجعلها غير قادرة على هضم تطور بهذا الحجم، وخاصة في ظل الصراعات الحاصلة فيها والحرب على داعش، والتي وإن تبدو ظاهرياً قد انتهت، إلا أن ارتداداتها لا تزال قائمة.

- وجود توجه داخل النظام العالمي يؤكد على دور الدولة وتعزيز سيادتها، بعد ازدياد عدد الدول الفاشلة، والناجمة في الغالب عن انفصال أقاليم ومكونات عن دول كبرى، في أوروبا الشرقية وآسيا، وأصبحت هذه الدول أحد مهددات الأمن العالمي في القرن الحادي والعشرين.

- ورغم العلاقات الجيدة للأكراد مع القوى الدولية الكبرى الفاعلة في المنطقة، الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا، إلا أن هؤلاء لهم حساباتهم المعقدة في المنطقة ومصالحهم المتداخلة مع الأطراف الإقليمية، وتعتقد كل من أميركا وروسيا أن دعم الفيدرالية، بحد ذاته، في العراق وسورية، هو دعم للأكراد في الظروف الحالية وأن تجاوزه لأكثر من ذلك يعني الوقوع في المحذور في منطقة هشة لا زالت تفتتها الصراعات.

تكمن محنة العلاقة الكردية بالعالم الخارجي في أن الدول المؤثرة، منذ نهاية عشرينيات القرن الماضي وحتى أوائل تسعيناته (وربما حتى اليوم)، لم تنظر إلى كردستان ككيان تجدر دراسة مشاكله ورغبات شعبه لتتخذ بالتالي موقفاً حول مصائره. كانت كردستان على الدوام «مشكلة عراقية» أو «إيرانية» أو «تركية» تتم معابنتها من خلال مؤشر العلاقة مع بغداد أو طهران أو أنقرة ويتم اتخاذ موقف في شأن «المشكلة الكردية» تناسباً مع الموقف من الحكومات المركزية.

وعلى الدوام، كان الأكراد يكتشفون، متأخرين، أن لا صديق لهم سوى الجبل، على ما يقول مثلهم الأثير، فلطالما كانت علاقات القوى الخارجية معهم تأخذ طابعاً استعمالياً، وحين تنتهي مهمتهم غالباً ما يجري الابتعاد عنهم وتركهم يواجهون مصائيرهم وحيدين.

الجغرافيا: القوة الإقليمية الخامسة في مواجهة الأكراد

شكّلت الجغرافية أحد المعوقات التي تحول دون إمكانية تحقّق الدولة الكردية، بل يمكن وصفها بالقوة الإقليمية الخامسة المانعة لنشوء الدولة الكردية، بالإضافة إلى تركيا وإيران والعراق وسورية، وتتميز الأراضي الكردية بفقدانها العمق الإستراتيجي الذي يسمح للأكراد بالمناورة على مستوى عالمي لتعزيز موقفهم عالمياً.

إن غياب الاتصال المباشر مع العالم الخارجي، وفقدان الممر المائي البحري نحو الخليج والمتوسط والبحر الأسود، تبقى من أهم نقاط ضعف المشروع الكردي، لكون المناطق الكردية تتسم بجغرافية صعبة، وزيادة على ذلك فهي محصورة بين ثلاث قوميات مختلفة (عرب وأتراك وإيرانيين).

وتعتبر مناطق الكرد حبيسة لا منافذ بحرية لها وتعتمد على دول الجوار من أجل الوصول للعالم الخارجي في تصريف منتجاتها واستيراد حاجاتها، وحتى يمكن الخروج من هذه الوضعية المعقدة تحتاج كردستان لأحد حلين: إما اختراق واحدة من الدول المحيطة بها، إيران، تركيا، العراق، سورية، وتحبيدها عن معاداتها، وهذا الأمر لا يبدو أنه ممكن في ظل الظروف الحالية وتوافق جميع الأطراف على منع قيام الدولة الكردية، أو السيطرة على مدينة إدلب السورية، كما كشفت مصادر غربية، ومن خلالها الوصول إلى البحر المتوسط، وهو أيضاً أمر يستحيل تحقيقه في الظروف الحالية بعد أن تجاوزت سورية إمكانية التقسيم .

ولا تقف حدود التأثيرات الجغرافية عند هذا المستوى، ذلك أن أراضي كردستان تتميز بطبيعتها الجبلية والصخرية والمنحدرات وهي خالية من الأراضي الرخوة الصالحة للزراعة والتي تلبي حاجات السكان من الغذاء والطعام بشكل كاف، مما يجعل كردستان بحاجة دائمة إلى استيراد حاجاتها الأساسية من الخارج.

وتدرك دول الإقليم نقطة الضعف هذه، وتستخدم الاقتصاد كأحد الأسلحة الفاعلة في مواجهة طموحات الكرد بإنشاء دولتهم المستقلة، وتجعل خياراتهم ضئيلة في القدرة على السير في طريق تحدي دول الإقليم المحيطة بهم.

وإذ يعتمد إقليم كردستان على النفط بشكل كلي، فإن تركيا هي من توفر الميناء الوحيد "جيهان" لتصدير هذا النفط للعالم الخارجي، كما أن حكومة إقليم كردستان تستورد من 80 إلى 90% من البضائع والخدمات من الخارج. حتى البيض والحليب على أرفق محالّ البقالة تأتي من الدول المجاورة، نظراً لافتقادها بنية اقتصادية تحتية.

كما أن جزءًا لا بأس به من حاجات الإقليم يأتي عبر المنافذ مع إيران، وكذلك يعتمد الإقليم على بغداد اعتمادًا كبيرًا في تسيير شؤونه وخاصة مرتبات الموظفين لديه وكذلك الميزانية المخصصة لتوفير الخدمات العامة، وكل ذلك في وقت أصبحت حكومة إقليم كردستان مثقلةً بالديون منذ انهيار أسعار النفط عام 2014، وصارت تُكافح لدفع رواتب القطاع العام المتضخم لديها. فالحكومة الآن مدينة بـ8 مليارات دولار من الرواتب المتأخرة.

وبحسب آراس خوشنو، أحد المستشارين الاقتصاديين لدى حكومة إقليم كردستان الذي صرح لصحيفة "فايننشال تايمز" فإن حكومة الإقليم مدينة بحوالي 5 مليارات دولار لشركات النفط، وقد دفعت لبعض هذه الشركات عبر قروضٍ بنكية.

فتش عن إيران

كأدوارها التخريبية التي مارستها في المنطقة، لعبت إيران دورًا سلبيًا في دفع الكرد في شمال العراق إلى التعجيل بطلب الاستقلال، صحيح أن المطالب الكردية بالاستقلال قديمة ودائمة على مدار عقود سبقت، لكن الاختلال في موازين القوى والمائل لإيران كان أحد الأسباب المباشرة لدفع الكرد للتأكيد على طلب الاستقلال.

من المؤكد أن الكرد الذين يتمتعون بعلاقات جيدة مع الساسة والدبلوماسيين في الغرب بالإضافة لعلاقاتهم مع مراكز الأبحاث التي تساهم في وضع سياسات القوى الكبرى تجاه المنطقة، لا بد أنهم كانوا يعرفون مواقف تلك القوى من إعلان الاستقلال في الوقت الحاضر، ويعرفون المخاطر التي سيتعرضون لها والفرص التي سيخسرونها، وعدا عن المواقف العلنية التي عبرت عنها أميركا وأوروبا وحتى روسيا، فقد كانت هناك تحذيرات من شخصيات ومراكز، إن لم يكونوا أصدقاء للكرد، فهم من المؤكد أعداء لإيران، ولا يريدون حصولها على مكاسب جديدة تأتي كهدايا نتيجة أخطاء النخب في المنطقة.

لكن الكرد الذين كانوا يراقبون التمدد الإيراني في المنطقة، ترسخت لديهم قناعة بأنه وفور الانتهاء من الحرب على داعش وانكفاء القوى الكبرى عن المنطقة وانتفاء الحاجة لهم، سيأتي عليهم الدور من قبل إيران وسيتم تجريدهم من جميع المكاسب التي حصلوا عليها، وخاصة وأن الكرد ورغم عدائهم مع تركيا إلا أنهم كانوا يدركون أن تركيا ليس لها أذرع خارجية وميليشيات مثل إيران التي تستطيع إنهاكهم دون إعلان حرب مباشرة من طهران عليهم أو أن يستطيع المجتمع الدولي ردها، في حين أن تركيا إن أرادت الحرب على الكرد فسيكون ذلك من خلال الجيش الذي سيرفض دخول هذا المستنقع رغم وجود الرؤوس الحامية في حزب أردوغان، فضلاً عما سيواجهه من ضغوطات دولية.

وفق ذلك، فقد شكلت إيران، بالإضافة إلى ظروف الفوضى وواقع ضعف دول المنطقة، العراق وسورية، أحد العوامل التي شجعت الكرد على طلب الاستقلال في الوقت الراهن.

إلى أين ؟

الأزمة التي أنتجها استفتاء إقليم كردستان واستعادة سيطرة حكومة بغداد المركزية على كركوك، وما تبعها من حصار بري وجوي، شذبت من طموحات الكرد وكشفت أمامهم حقيقة المشهد الدولي والإقليمي، وبات هم الكرد ينصب على المحافظة على المكاسب التي حققوها سابقاً في الحكم الذاتي المنصوص عليه في دستور العراق.

يعني ذلك أن الإرادة الإقليمية انتصرت في الوقت الراهن ونجا الإقليم من إشكالية جديدة تضاف إلى حزمة أزماته، فيما خسر الأكراد جولة جديدة في الصراع على تحقيق طموحهم بالاستقلال وياتوا يبحثون عن أقل الخيارات سوءاً على واقعهم، بعد أن اكتشفوا أنهم بالغوا في تقدير قوتهم والموقف الدولي تجاههم، وسيمر الطرفان بمرحلة صعبة من إعادة بناء الثقة التي تحطمت جراء الاستفتاء وردة الفعل الإقليمية عليه، بانتظار معرفة اتجاهات الرياح في السياسة الدولية ليتم ضبط أشربة سفنهم.

